

الشاعر رابندرانات طاغور

يحد الناقد مشقة ، عندما يحاول أن يشرك غيره في تذوق أدب غريب ؛ فالأمزجة الفنية تختلف باختلاف الشخصيات والميول ، ولا تتفق إلا في نطاق ضيق جدا على عناصر ضئيلة لا اختلاف فيها . ومن هنا كانت الاحتجاجات المرة والتذمر الملح والآراء القاسية التي تصادفها في بعض ما تقرأ لكتاب الغرب أمثال بلزاك ، وفلوبير ، وأندريه جيد ، وبول فاليري ، وأوسكار وايلد ، والشاعر الألماني رلكيه ، إذا أتيح لهم أن يعرضوا لمسألة النقد الأدبي .

وقد ذهب بعض هؤلاء الكتاب إلى القول بأن النقد شيء يؤسف له ينمو على أنقاض آراء عتيقة بالية ، لا صحة لها ولا طائل تحتها ، كمشكلة الفكرة والصورة . وكان فلوبيير من أشد الساخطين على النقد والنقاد ، وقد هاجمهم بشتى الوسائل مندداً تارة بتأثيرهم السيئ في عقول القراء ، ومترحماً تارة على الأدب الذي ذهب مع الريح لكثرة ما تعرض له النقد بأساليبهم الفاسدة . ونحن نفهم هذا كله ونسلم به ، ولكن هناك نوعاً من النقد ستمته الأجيال بأساء مختلفة ، فوصفته مثلاً بالنقد الموضوعي ، وبالنقد العرضي ، الذي لا يخرج عن إطار الأثر الأدبي الذي يعالجه ، فيقدمه الناقد للقارئ ليشجعه على مطالعته ، تاركاً له الحرية الكاملة في استحسان ما يقرأ ، أو الاعراض عنه . فالناقد في هذا الوضع يكون مرشداً لا حاكماً ، ومشيداً لا هادماً . غير أنه من الحق ألا نعرف للناقد بالحق في أن يبسط رأيه في صراحة تامة ، يميز بين الجميل والقيح ويشير إلى مواضع الضعف والقوة ، ويشرك القارئ في الفائدة التي جناها من مطالعته ، والعبرة التي خلص بها من تلك الرواية أو ذلك الديوان ، وهو فيما يقدم للقراء يعالج الأثر الفني من « الداخل » كما يقول الشاعر رلكيه ، ويذهب إلى صميم ما أراد الشاعر أو الكاتب من قصيدته أو قصته ، لا إلى صميم ما يريد أن يعيد في الكتب التي ينقدها من إذعان للمذاهب السائدة ، والقواعد المتبعة .

ونحن نريد أن يكون مجننا عن رابندرانات طاغور شاعر الهند الخالد ، حديثاً موجزاً بسيطاً عن أغراض الشاعر ، وعمما دفعه إلى هذا اللون من الفن ، أو إلى هذا المذهب في الكتابة والتفكير .

لا بد لنا قبل الوصول إلى صميم شعر طاغور واعتبار خصائص هذا الشعر والرسالة البشرية التي يحملها إلينا ، من أن نعطي القارئ فكرة عابرة عن حياة الشاعر وبعض مؤلفاته . ويرجع الفضل الأكبر في هذه البيانات إلى المقالات التي نشرها الأستاذ محمود المنجوري على صفحات « المقتطف » سنة ١٩٤٢ ، وإلى بعض ما عثرنا عليه في المراجع الانجليزية والفرنسية . وقد دهشنا في بادئ الأمر لنقص هذه العناصر الأولية في مقدمات أندريه جيد سنة ١٩١٤ ، وييتس سنة ١٩٤٢ ، « للقربان الشعري » ، ومقدمات وديع البستاني ، وكامل محمود حبيب ، لديوان طاغور وعنوانه « البستاني » ، والمذكرة التي ذيل بها كاليداس ناج ويير جان جوف ترجمتهما إلى الفرنسية لديوان « البجعة » ، والبحث الذي صدر به الكاتب الفرنسي رومان رولان ترجمة مادلين رولان لكتاب عنوانه بالبنغالي « كاتورنجا » .

وإذا أمعنا النظر فيما أسميناه نقصاً وجدنا أن الحق بجانب هؤلاء الكتاب جوهريتين ؛ فأنهم أهملوا ، لاشك في ذلك ، ناحية ربما كان لها شأن في تاريخ الأدب الذي نقرؤه في الكتب والبحوث العلمية التي لا تذكر اسماً أو عنواناً حتى تزوده بالتواريخ والمذكرات المختلفة ، ولكنهم فطنوا إلى حقيقة أرفع من التعلق بالتواريخ الدقيقة ، وهي أن شاعراً مثل طاغور لا تحده السنة التي ولد أو مات فيها ، ولا بلاد عاش بها ، لأنه يجاوز زمنه ، ولا يجوز لوطن أن ينفرد به ، فهو شاعراً ومفكراً أكثر منه فيلسوفاً عالياً ، وهو معاصر لكل فرد يطلب الجمال ويسعى للوصول إليه ، ليستمد من رسالته قوة وأمل .

ومهما يكن من الحاجة إلى التواريخ والبيانات الخاصة بحياة طاغور ، فقد وقفنا لبعضها ، ومنها أن رابندرانات طاغور - وبعض الناس يكتب اسمه بالتاء « تاغور » ، ويقول أندريه جيد إنه يجب أن يلفظ « روبندرونات طوغور » - ولد في مدينة كلكتا سنة ١٨٦١ ، وكان أبوه فيلسوفاً يعيش متقشفاً ، وتوفيت أمه في حادثته ، فنشأ طفلاً محروماً عطف الأم وحنانها . أرسله أبوه إلى المدرسة ، ولكنه

لم يتردد إليها طويلا ، فاضطر والده إلى أن يحضر له الأساتذة في البيت . وعهد التلمذة هو من الأمور التي تترك عادة أثراً عميقاً في نفسية الفرد ، ومن هنا كانت أهمية ما تقرأه لطاغور إذ يقول : « كنت أتألم مدة طفولتي من شعوري أن نظم التربية في المدرسة لا صلة لها بالعالم . » وفي سنة ١٨٧٧ رحل طاغور إلى بريطانيا العظمى حيث أتقن اللغة الانجليزية وآدابها ، حتى استطاع فيما بعد أن ينقل بعض مؤلفاته من البنغالية إلى الانجليزية . ثم عاد إلى بلاده وتزوج سنة ١٨٨٣ وبعد عامين ذهب إلى الريف ليشرف بنفسه على ممتلكات والده ، وقد كتب في الريف أكبر قسط من مؤلفاته ، وبقي هكذا إلى سن الأربعين إذ نجح في غضون بضعة شهور بوفاة زوجه وابنته الكبرى وأصغر أبنائه . تلقى شاعرنا هذه التجارب القاسية المتلاحقة بصبر وشجاعة وإيمان وهو يقول : « إن عاصفة الموت كانت عليّ نعمة ورحمة » .

وقد أنشأ في سنة ١٩٠١ في مدينة بلبور على مقربة من كلكتا مدرسة للأطفال أطلق عليها اسم «شانتى نكتال» أي «دار السلام» . وقد استبدل باسمها في سنة ١٩٣١ اسم «صفا بهاراتي» ووسع نطاقها فأصبحت معهداً للتقارب والتعارف بين الشعوب . وقد بدأ من سنة ١٩١٢ سلسلة رحلات ، استأنفها في سنة ١٩٢١ ثم في سنة ١٩٢٦ ، فزار إنجلترا وفرنسا وألمانيا واليابان وأميركا وروسيا السوفيتية والصين وجنوب إفريقية والعراق وكندا وتركيا وإيطاليا ومصر ، وكان دائماً موضع حفاوة وتقدير وإعجاب .

وفي سنة ١٩١٣ منحه مجمع ستوكهلم جائزة نوبل في الآداب ، وفي سنة ١٩١٥ أنعم عليه ملك الانجليز بلقب «سير» وفي سنة ١٩١٩ لأسباب سياسية اعتذر طاغور من الاحتفاظ بهذا اللقب ، وفي سنة ١٩٣٠ عهدت إليه جامعة أكسفورد ببعض المحاضرات يلقيها على طلبتها ، وفي سنة ١٩٤١ منحته الدكتوراة الفخرية في الآداب .

ولما بلغ طاغور الثامنة والستين ، عكف على الرسم ، وقد عرضت آثاره في لندن ، ثم في برمنجهام وموسكو وبرلين ومونيخ وباريس ونيويورك ، وتوفي في ٧ أغسطس سنة ١٩٤١ .

ليس من شك أن لآثار الفنية لشاعرنا الفذ شأنًا عظيمًا إذا نظرنا إلى ضخامتها وإلى الموضوعات التي عالجتها .

وإذا استثنينا آلاف الأناشيد التي تركها طاغور كان عدد مؤلفاته الشعرية يبلغ الستين ، وله في النثر ، قصص وروايات وبحوث ومقالات وعظات وذكريات لا تحصى ، تقل معظمها من البنغالية إلى سائر اللغات ، غير أننا لم نقرأ في العربية سوى « البيت والعالم » ترجمة طانيوس عبده (مطبعة الهلال سنة ١٩٢٥) ، ومختارات عن « البستاني » مترجمة نظماً ونثراً ، بقلم وديع بستانى (مطبعة المعارف) ، وترجمة للديوان نفسه من محمد كامل محمود حبيب (مطبعة المقتطف سنة ١٩٤٠) . ومن أهم ما قرأنا له شعر مترجم إلى الفرنسية ، نخص بالذكر « القربان الشعري » و « قطف الثمار » و « البستاني » و « الهلال » و « البجعة » .

إن الشيء الرائع الذى نجده فى شعر طاغور هو محاولته تصوير الانسان أمام ربه ، والفرق الشاسع بين الخالق والمخلوق من جهة ، والتقارب الغريب وعدم الكلفة بينهما من جهة أخرى . ولتلك الفكرة أهميتها الكبرى فى فلسفة الهند .

يذكر طاغور الانسان فى شعره ، فيشبهه بكأس ذقيقة قابلة للكسر السريع ، وبناء صغير من القصب فى يد الخالق . ولكن الشاعر يرى أن هذه الكأس وذلك الناي ، يكبر شأنهما إذا أراد الله أن يملأهما حياة متجددة ، وموسيقى أبدية ، فى ذلك الحين يتسع قلب الانسان ويتهيج ، ويكاد يذوب فرحاً ، وتصبح يداه قادرتين على أن تتلقيا أكثر مما تحفهما به الخالق .

ويرى طاغور أن السبب الذى يصل الانسان بربه ، هو قدرة الانسان على الفناء ، فما الحياة وما بها من شدة ورخاء أو حزن وفرح ، إلا هذا النشيد الذى يصعد من الطبيعة ومن الكائنات ومن الجمال ، والطرب الذى يختلج له قلب الغنى فينسيه نفسه ومقامه الحقيقى ، فيدرك حينئذ أن صداقة تربطه بربه . والشعر الذى ينشده ويقربه شيئاً ما إلى الموسيقى الفياضة التى تتدفق من السماء ، وتشيع النور فى العالم .

ويدور عدد وافر من قصائد طاغور ، حول أفكار محدودة ، حتى ليصيب القارئ شئ من الملل ، إن لم يترك وقتاً كافياً بين قراءة وأخرى . وقد يندر أن نقرأ صفحة من « القربان الشعري » مثلاً ، دون أن تصادفك عبارة من الموسيقى ، أو إشارة إليها . فالشاعر يحس تارة بسرور ، لأنه تمكن أن يجرد غناؤه من كل

ما يثقله من زينة أو بلاغة أو إطناب . وهو يعترف تارة أخرى ، في حسرة ويأس ، أنه حاول عبثاً الاهتداء إلى اللحن الموسيقي الذي يقصده ، فنجده ساخطاً على صوته السجين ، البعيد كل البعد عن الكلمات التي يدعوها فلا تجيب ، ويتنظرها فتخيب أمسه .

وإذا تركنا الموسيقى وما إليها من تشبيهات واستعارات ورموز شعرية في مؤلفات طاغور ، وبجئنا عن ألوان أخرى من التفكير ، وجدنا الشاعر عاكفاً على تحليل شخصيته وما تشمله من أمزجة وميول ، وانفعالات وطموح إلى الجمال واقترار إلى الخير ، وسخط وإشراق ، وعبوس وأمل ، وهو في كل لحظة ، وعند كل محط لفكرة ، يتوجه إلى الخالق ليسمع له وليساعده على تحقيق مساعيه ، وليرشده إلى الجمال والكمال في الشعر وفي الحياة .

وفي موضع آخر من شعره يعلن الشاعر أن حاجته ماسة إلى عفة الجسم ، وطيبة القلب ، وازدهار الحب والأعمال ، وأن هناك ساعات عصيبة تمر به ، من حين إلى آخر ، فيشتقى لها ويشكو منها ، فتزيد رغبته في الراحة التامة ، وفي أن ينعم نظره في محاسن الطبيعة وجمالها .

والطبيعة كما يبدو للقارئ من أول وهلة ، تزهو وتنفوح في قصائد طاغور ، وصفحة الطبيعة كما يقول : « إنما هي لوحة متجددة الجمال ، يرقبها الشاعر بمنظار إلهامه ، ثم يفصح عنها بترنيم وتلحين وموسيقى ، دون استعمال أصباغ وألوان » . وللقارئ أن يطوّف بشعر طاغور ما طاب له التطويف ، فإنه سيخرج من هذه الجولة وقد امتلأ بصره بألوان الزهر وازدحمت ذاكرته بأسماء السوسن واللوتس والصندل والزعفران وحقول الخردل وغابات المانجو ، ويصور القمر وهو يغازل الزنبق والاقحوان تارة ، ويجبو متكسلاً في دلال بين الشجر تارة أخرى ، والسحب التي تنعقد في السماء ، أو تتكاثف مثقلة بالمطر فوق هامات الشجر ، أو تسحب ذيولها على الكواكب ، وبرقة المنسيم يعبث بأفئنان شجرة الخيزران .

وقد أثرت في نفس الشاعر وحواسه فصول السنة ، بل شهورها ، وحركات الضوء والظل والريح والماء . وهو يدين للطبيعة بتشبيهات رائعة ، مما نجدها في أحسن الشعر الفرنسي الرومانتيكي . ولا يسعنا إلا أن نذكر بعضها : « إنما يدلك زهرتان ناضرتان من زهرات اللوتس » و « دعج عينيك أشد حلوكة من سواد

السحابة المثقلة بالمطر» و «ستشع خواطرك من عينيك السوداوين كما يطل
طائر من عشه» و «إنك تحتفين كأنك نجم توارى خلف التلال» و «أنت
سحابة السماء التي تسبح في سماء أحلامي» الخ . . .

والطبيعة تحدث الشاعر وتناجيهِ ، وتصرفه عن الأمور الخارجة ، والمصالح
المادية . فيفطن لأهمية ما يقع عليه نظره ، ويهيئ نفسه لتلقى درسها ، والانتفاع
به ، وربما دفعه إعجابه بالكائنات الطبيعية ، التي لم تعبت بها بعد يد الانسان ،
إلى شئ من الغلو والتطرف ، فيجر العالم ومن فيه ، ويصبو إلى حياة هادئة
بريئة ، لينصت إلى همس دفين في قلبه ، عندما تغيب الشمس ويشعر الانسان
بجمال الطبيعة ، وجلال الحياة .

وهنا تبدو للشاعر عناصر من الفكر ، لم يكن له بها من قبل ذلك عهد ،
وتجلى له معان للحياة تزيد من معرفته وطاقته على إدراك أسرار الكون
والمخلوقات ، وتساعده على التأمل في الأسباب الوثيقة التي تصله بالطبيعة
وبالانسانية ، وتجعل منه حلقة ضرورية من حلقات البشر ، وعاملا أساسيًا
لانسجام العالم . ومن هنا كانت الناحية البشرية ، في شعر طاغور . وهو يثق كل
الثقة أن الأفكار التي تجول بنفسه ، والألفاظ التي يرددها لسانه ، والموسيقى التي
تجمع بين الكلمات وتكسيها بهجة وتزيد من تأثيرها في العقول ، كل هذا وليد
السكينة ، وغاية كل تأمل أو تفكير صادق .

ولكن الشاعر لا يعيش لربه ولنفسه فحسب ، فهناك قوم يترقبون حركة
شفتيه ليتلقوا رسالته ، ويستقوا منها ما يرد عنهم شبح اليأس والقنوط ، ويعاونه
على الاقدام والصبر والشجاعة . ولا يجد طاغور في بعض الأحيان ، متسعاً من
الوقت ، ليتأمل في الحياة ، وليقف في خلوة عند الأفكار التي تجول بخاطره ؛ لأن
هناك أصواتاً ترتفع في الليل وقلوباً شابة ، ونظرات كلها حب ، تنطق وتطلب
الموسيقى ، فيسأل الشاعر : « من ذا يستطيع أن ينسج أغانيها إن انزويت أنا على
شاطئ الحياة ؟ لا أستشعر في نفسي سوى الموت والحياة الأخرى » . ونحن نلمس
هنا ناحية للنضال والخصومة بين مظهرين من مظاهر الحياة ، نرى الشاعر
الذي يسعد بقدرته على التفكير في أمور تهمة من جهة ، ومن جهة أخرى
نرى الشاعر الذي لا بد له أن يشغل نفسه بالذين يفدون ويروحون أمامه
وهو « لا يستطيع لهم دفعا » .

هذا وليس في نيتي ، ولا في استطاعتي ، أن ألم بأطراف المعاني المختلفة المبثوثة في دواوين طاغور التي حصلت عليها مترجمة إلى العربية والفرنسية والانجليزية . وما الآراء التي بسطتها ، إلا الجزء الضئيل مما ينبغي أن يقال في شاعر ، لم يترك فكرة إلا وذكرها وشعوراً إلا وعبر عنه ، في أسلوب أخاذ موسيقي .

ومن المسائل التي اهتم بها طاغور ، والتي ربما أتيح لنا أن نعرضها في مقال آخر ، مشكلات الحب والحرية والموت . ونريد أن نشير ، في نهاية هذا البحث الوجيز ، إلى حقيقة لا ريب فيها ، وهي أن طاغور نال هذا الكمال في آثاره الفنية ، لأنه سما بالفن إلى مرتبة العقيدة ، وله مؤلف قائم بذاته عنوانه « دين الشاعر » . وقد لمسنا في بعض فصوله سر جمال شعر طاغور . وما ينتظره من هذا الدين ، هو أن « يساعد الضمير على التخلص من نير المادية » ، وأن يذكر الشاعر ومن يتلقى رسالته ، في ساعات الجهد والاضطراب ، بأن هناك « ترنيم البلبل » وجمال الزهر . ويقول طاغور : « ليس هذا الدين جواباً على سؤال بل هو موسيقى تسليتنا عن أفكارنا كلما ابتلأت بها نفوسنا » .

وجاء شعر طاغور دليلاً قاطعاً ، وبرهاناً صادقاً ، على ما يقوله في كتابه ، ورسالة فكرية وخلقية من أعظم ما جاد به الشعراء على الإنسانية .

بمهره فرنسي